نظرات

فى حياتنا الاجتماعية

لحضرة صاحب السعادة حمد الباسل باشا

سرنى ان أرى مجلة تعنى بالشئون الاجتماعية ، ناطقة بلسان الحاكم ومستمدة الرأى والفكرة من المحكوم ، فهى بين الجهتين صلة سهلة وسفير موفق محبوب .

واذا كان لى أن أدلى بفكرة أو أبسط أمنية ، فان أول مايعنينى من مهام الوزارة الجديدة أن تكون وزارة تنسيق وتأليف بين المتنافرات من شئون الحياة القومية ومظاهرها فان التخالف بين هذه الشئون والمظاهر شائع حيثما حللت وأينما سرحت البصر .

يكاد المتنقل فى مدينة كالقاهرة يشعر بأنه ينتقل من مدينة إلى مدينة ، لا من حى إلى حى إذ التباين شديد بين الأحياء وبين أساليب المعيشة وبين أزياء الناس وأذواقهم .

فاذا كنت فى شارع الغورية أو ماشابهه رأيت الضيق والزحام واصطدام الأجسام بالأجسام واضطراب المسارة بين عربة تدفعها اليدان ، وأخرى يجرها بغل أو حصان ، وسيارة ركاب وأخرى لأحد الأعيان ، وثالثة تنقل المتاع والبضائع وتكاد بضجيجها وفداحة أثقالها تهد الأرض هدا وتدك المبانى دكا ، ومن الناس مشاة وحفاة ، ومنهم من يتخطى حمارا أو يدرج على دراجة ، وقد تمر بين أولئك جميعا قافلة من الجمال تحمل بطيخا أو أنواعا من الخضر توزعها على دكاكين الحى وبيوته ، وعرض الشارع مع كل هذا العناء وكل هذا الزحام لا يزيد على أربعة أمتار .

وإنك لتنظر إلى المتجر فلا تعرف ماذا فيه من البضاعة إلا إذا سألت صاحبه : هل هو للأقمشة أم للحرير ، أم لأدوات الزينة ، فان بين هذه البضائع تشابها ولبسا ، وأهم ماتلاحظه على أى واحد من أولئك التجار أنه يعتمد فى تقديم مطالب المشترين على ذاكرته لا على تبويب أو تنظيم .

وعلى خطوات من هذا العالم المضطرب المشعث ترى عالما آخر مستقرا منظما ، ففى شارع فؤاد الأول وشارع المدابغ وأمثالها تجد السعة والأناقة ، فالمشاة على الأفاريز ، والركبان فى سوها

الطريق، والمتاجر مقسمة أدق تقسيم بحيث تعرف وترى بعينيك اين البضاعة التى تطلبها دون إرشاد ولا سؤال، اذ بضائع كل قسم معروضة واضحة، والعمال يدرك كل منهم عمله واختصاصه وأسعار ما فى عهدته من البضائع وليس معنى هـذا أن أحياءنا الراقية أو الوسطى قد اكتمل فيها النظام حتى لا زيادة لمستزيد، ولا خلاف بينها وبين مثيلاتها فى الممالك الكبرى، بل إن وجوه النقص لم تزل كثيرة فى نظام المرور على الأقل، فإنك فى كثير من عواصم العالم المتحضر ترى إفريزى الشارع الواحد قسمة عادلة بين الذاهبين والعائدين، لايلتقى غاد برائح ولايتعب البوليس فى إفهام الجمهور هذا الواجب بل الكل مشبعون بروح النظام .

وقد يقع هـذا التقسيم فى كل شارعين متوازيين كشارعى الموسكى والأزهر، كلاهما يبدأ من ميدان الملكة فريدة وينتهى الى الأزهر، فيخصص أحدهما للترام والآخر للسيارات العمومية والخصوصية، ويقع هذا التقسيم بين الذاهبين والراجعين فلكل من الفريقين أحد الشارعين .

وندع هذا البحث الطويل الى غيره من مظاهر اضطراب الحياة القومية، فهناك موضوع الأزياء وكثرتها، ولعلنا أضخم الأمم رقما فى عدد الأزياء . فلدينا "البدلة" والجبة والقفطان والجلباب أو "الجلابية" بالتعبير العامى (وأذكر أنى رأيت هـذه الجلابية على كثير من الأجسام فى بلغاريا ورومانيا وغيرها من ممالك أوروبا الجنوبية ولكنى أرجو ألا تتخذ هذه الممالك قدوة حسنة لأنها فى الصف المتأخرين الدول الأوروبية، ولدينا كذلك "السروال" وألبسة أخرى هى مزيج مضحك من كل تلك الأزياء .

ولدينا من أغطية الرأس : العمامة، والطربوش، والطاقية، واللاسة، واللبدة، والعقال، والطربوش المغربى المجرد من الشال وهو الذى يلبسه العرب، ثم القبعة وما فى حكمها كالكاسكيت وغيرها .

ولست أذهب الى ما يراه الكثيرون من توحيد الأزياء، فذلك مطلب عزيز المنال، ولكنى أطمع فى التقريب بينها قدر الإمكان : فأنواع العمائم يجب توحيدها فلا تكون هناك العمامة البيضاء والحمراء والخضراء اللهم إلا ما اصطلح عليه رجال الدين كزى يعرفون به كالقسس والرهبان . أما أصحاب الطرق الصوفية فما أسهل رجوعهم الى العمامة البيضاء على أن تكون لهم شارات تميز بعضهم من بعض إن شاءوا أو إن كانت هناك ضرورة لهذا التمييز .

واللبدة والطربوش من فصيلة واحدة وتوحيدهما ممكن إذ لو وضعت اللبدة على قالب طربوش لصارت طربوشا، ولنصبغها بعدذلك بأى لون، ولا أهمية لوضع الزر فيها أو إهماله . ومن الممكن تحسينها وإكسابها بعض النعومة لتكون أقرب ما يمكن الى الطربوش، وقد نجعلها لباسا لعسكر البوليس والجيش وخفراء القرى فهى لا شك جميلة المظهر رخيصة الثمن .

أما اللاسة ، والطاقية المجردة ، وعرى الرأس فكل أولئك يجب مكافحته والقضاء عليه. والأمر هنا يسير إذا اهتم به أعيان البلاد وسادتها النابهون من الأهلين .

ذلك بعض ما تقع عليه العين من وجوه التنافر فى المدينة المصرية .

أما القرية المصرية فالتنافر والفوضى فيها أوضح وأظهر وأوفر ، وعدوى الحضارة بطيئة السير حتى الى القرى التى تجاور المدينة وتلاصقها كما ترى بين مدينة القاهرة وقرية المنيل التى تلاصق حيا من أعمر وأجمل أحياء العاصمة ، وكذلك فى العزب القريبة من مصر الجديدة ومنشية الصدر وما اليهما : هنا مدنية وحضارة ، تجاورهما فطرة وبداوة ، رغم التآخى والتلاصق والجوار .

وليس موضوعى الآن تعمير الريف المصرى أو بحث مشكلاته الاقتصادية والزراعية فذلك موضوع طويل متشعب النواحى ، وإنما الذى أريده هو تقريب ريفنا إلى الحياة النظامية وتمتيع أهله بقدر من الرغد والرفاهية ، وليس هذا المطلب بالعسير ولا بالذى يحتاج الى الملايين من الجنيهات ولا هو بالذى يقع على عاتق الحكومة وحدها ، بل السكان أنفسهم قادرون عليه ، الى حد كبير .

إن المدنية الريفية فى فرنسا هى من صنع الأهالى قبل أن تكون من صنع الحكومة ، فالقرية التى يقارب سكانها خمسة آلاف لا يمكن أن تخلو من مدرسة أو مدارس ، ومن صيدلية ومستوصف صغير ، ومن أطباء ومهندسين ومحامين هم فى الغالب من أهل القرية نفسها ، ذلك أن الشاب هناك يعلم أن وظائف الحكومة ليست هى المجال الوحيد للعمل والرزق ، ويعلم أن عليه لأهله وجيرانه واجبا اجتماعيا فهو يحصل العلم الى نهايته ثم يعود الى قريته ليخدمها بطبه أو هندسته أو سواهما من ضروب العلم والثقافة .

ولا يخلو منل هذه القرية من ميدان أو ميادين فسيحة يخططها وينظمها أهل القرية ويغرسون فيها الأشجار وينشئون لها المقاعد من خشب السنط أو من جريد النخل فتكون على بساطتها جميلة أنيقة ، ويزرعون فى وسطها روضة أو رياضا فيجاء تكون أحسن نزهة للمتنزهين والمتنزهات ، وكثيرا ما يخططون بأيديهم ملاعب للتنس أو لكرة القدم أو لسواها من الألعاب الرياضية التى تشترك فيها وتنتفع بها أجسام الأهلين رجالا ونساء وأطفالا .

وهناك مراسح للتمثيل ودور للسينما ثابتة أو طوافة ، وهنالك قاعات للمحاضرات ، وحمامات للرجال وللسيدات ، وغير ذلك من ضروب الترفيه عن الناس ، وكله أو جله من عمل الأهالى دون أن ينتظروا الحكومة وقراراتها الادارية أو اعتماداتها المالية .

وفى أكثر قرى اليونان يقيم الريفيون أعمدة تذكارية ينقشون عليها أسماء من يموتون فى الحرب من أهل القرية دفاعا عن الوطن ، أو من يأتون بأعمال جليلة لخدمة الإنسانية ، أو الذين رفعوا من قدر وطنهم بنبوغهم فى علم أو فن أو اختراع جليل .

هذه مثل سامية يجب أن نجعلها نصب العيون، والدأب والدعوة المستمرة كفيلان بتحقيقها.

وفى رأيى أن عمدة القرية وخاصة أعيانها والنابهين من أهلها قادرون على تحقيق هذه المآرب لقريتهم، بل هم أقدر عليها من المجالس القروية التى تكلفهم ضرائب ووظائف ومرتبات، ونفوس الناس أرحب لقبول وصاياهم ونصائحهم منها إزاء أوامر رجال الادارة أو بلاغات الحكومة ولوائحها، لا سيما إذا لاحظنا أن أكثر موظفينا فى الأقاليم لا يعنون بتحبيب الأهالى فيهم ولا يعملون على إيجاد التآلف بين الحاكم والمحكوم، بل يحسبون الوظيفة تسلطا وسيادة وينسون أن أولئك المحكومين هم إخوتهم وعشيرتهم وأنهم مصدر القوة والإنتاج والمال لهذا الوطن.

العمدة والأعيان كما قلت، هم أول من يجب أن يعمل على إيجاد القرية المنظمة الهانئة الجميلة، وليس أعون لهم على هذا الغرض من طول الإقامة فى قراهم، ومن إقامة المبانى الحديثة فيها بدلا من أن يقيموها فى المدن فتكلفهم باهظ النفقات وتباعد بينهم وبين مواطنيهم، وعليهم أن يكونوا هم المرشدين الأول والناصحين للريفيين بتنظيم أنفسهم وترتيب بيوتهم جهد الطاقة، وكنس شوارعهم والإنارة أمام بيوتهم هداية للسارة ومنعا لسطوات اللصوص، فاللص كما يقولون عدو النور. وليكن اقتراح الحكومة للرتب والنياشين متمشيا مع مبلغ ما يؤدى العمدة أو الوجيه لقريته من خدمات.

ولتأييد هذه الجهود الشعبية بالجهود الحكومية الأخرى من تعميم المستشفيات وإقامة الحمامات، دون انتظار لأصوات شكوى تنبعث من أفواه الفلاحين فإن فلاحنا قليل الشكاية، مطبوع على الرضا بحاله مهما تبلغ من السوء.

ولتستعن الحكومة فى دعايتها بكل الوسائل، من إذاعات بالراديو، إلى نشر فى الصحف، إلى وعظ فى المساجد وغيرها، وللوعظ الدينى أكبر الفضل فى نشر أية دعوة خصوصا دعوة النظام والنظافة والتطهير، وأمام رجل الدين مجال فسيح للتأثير على الناس فى هذا الباب ما دام يستعين بالكتاب الكريم الذى يقول "وثيابك فطهر" والذى يقول "إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين" وبالحديث الشريف "النظافة من الإيمان" وبغير ذلك من أوامر الله ونواهيه فى كل باب، والدين إذا تغلغل فى النفوس أكسبها رقة ورحمة وبعدا عن الشر وإقبالا على صالح الأعمال.

لقد ألممت فى هذا الحديث ببعض الخواطر لأضعها تحت نظر وزارة الشؤون الاجتماعية التى قلت ولا أزال أقول إن أول ما يجب أن تعنى به هو التنسيق والتأليف بين المتنافرات وأنى لأرجو لها سداد الخطى وبلوغ الآمال.

حمد الباسل